شفافية الدمع وكثافة الرؤيا

محمد عوض

فرحة عارمة، هي الأولى من نوعها التي تعم ذلك المنزل البسيط؛ أول الأبناء من يصل إلى الثانوية العامة بمعدل عالٍ بلغ 91%، عوَّض عن عدم وصول الأخوة الأكبر جميعهم إلى مرحلة الثانوية، فيكون أول من يدخل هذا النوع من الفرحة إلى قلب الأم والأب والأسرة بأكملها.

تعددت الآراء حول المستقبل: أب يتباهى ويرغب في إرسالي إلى تونس لدراسة التمريض أو المحاسبة، وأصدقاء مقربون يشجعون على الدراسة العسكرية في مصر، ومقابل كل ذلك أم تذرف دموعها خوفاً على ابنها من السفر وعدم رؤيته كما اعتادت. لم يدم ذلك الصراع طويلاً إلى أن استقر بي الحال في ساحات جامعة بيرزيت، أجلس بباب كلية التجارة والاقتصاد. موظف يرتدي بدلته الرسمية متجهاً إلى البنك أو الشركة التي يعمل فيها، هي الصورة التي كنت أرسمها في مخيلتي طوال عام كامل، تنقلت خلاله بين قاعة وأخرى في تلك الكلية.

أرى بأنك إن دخلت تخصص علم النفس ولا بأس إن جمعت معه علم الاجتماع هو الأنسب لك .... كلمات ملأت أذني ألقاها مرشد كلية الآداب. بعد فترة وجيزة وجدت نفسي اندمج وبقوة بتلك الكتب التي ارتوت بالنظريات النفسية والاجتماعية؛ عالم يطرح فكرة، وآخر يناقش نظرية، وأنا أتفكر بتلك الحوارات وأبدعت ... وجاءت لحظة التخرج الذي لطالما حلمت به لتكون المفصل الأساس في حياتي العملية التي لطالما انتظرتها.

الأونروا أول تجربة عملية أخوضها من خلال علم النفس. ملفات تكتب وقصص تروى وحالات تدرس، أناس ألقوا بين سطوري جمعاً من مشاكلهم ومعاناتهم، آملين مني مساعدتهم بذلك الرغيف الأبيض الذي رأوا أني أكثر من سيساعدهم في الحصول عليه. «قطنة» تردد فيها اسمي، وبخاصة عند مرور الشاحنة الزرقاء المحملة بطحين الحياة.

أما اليوم الأخير من العام 2009، فقد كان الأبرز في حياتي. عدت وقد حملت بيدي كتاب التعيين في وزارة التربية والتعليم بوظيفة مرشد تربوي. فرحة لم أشعر بها من قبل، أمان وظيفي بدأت أشعر به، ومجال صحيح ووعاء مجهز ليحتوي بداخله كل ما أوتيت من العلم. مرشد تربوي ومسمى وظيفي ومكانة اجتماعية كنت قد حلمت بها من قبل، وفي القرية نفسها «شهداء قطنة» مرشد جديد.

«أبو علي .. مرحباً بك، تعال لنشرب القهوة!» ترددت على مسمعي هذه الكلمات من معلمي المدرسة، وأنا ما زلت أشعر بتلك الفرحة إلى أن وصلت الإدارة المدرسية. رجل طويل القامة يعقد حاجبيه بطريقة غريبة لم أتوقع رؤيتها، وفي الوقت نفسه يغرق الغرفة بتوجيهات يغطيها العنف. جلست أرقب ما يحدث إلى أن أنهى وأصبح الطلبة خارج الغرفة. نظر إليَّ وابتسم بطريقة أوحت لي بشيء من الغرابة لأنني المرشد الأول الذي يحضر إلى المدرسة. رحب بي وأنهى إجراءاته الإدارية الخاصة بالموظفين الجدد. عرفته بنفسي وطلبت منه توفير مكان خاص للإرشاد. أبدى الموافقة وكأنه يتمنن علي بتلك الغرفة التي أنهكتها الرطوبة على مر السنين. وفي اليوم التالي، بدأت جولتي الأولى في المدرسة بين الطلبة، فوجدت الأشخاص نفسهم الذين انتظروا وطلبوا مني رغيف الخبز من قبل، ولكن بهيئة أطفال وطلبة، طلبوه مني بصورة مختلفة.

ولأول مرة أدخل غرفة الصف التي اعتدت أن أكون طالباً فيها بهيئة معلم – مرشد. أسئلة انهالت علي كالمطر: ماذا ستعلمنا؟ ماذا يعني مرشد؟ أين كتاب الإرشاد؟ ولبرهة، ارتسمت لدي كامل الاحتياجات التي احتاجها أولئك الطلبة، والتي تشابهت مع رغيف الخبز الذي كنت أسعى إلى إيصالهم له قبل عام.

احتياجات نفسية واجتماعية، مكان آمن يلقي به الطلبة همومهم وآلامهم، قمت ببناء الخطة الإرشادية مستنداً إلى الاحتياج، وحددت المحطات التي يجب أن أصل إليها مع الطلاب، عينت نقاط القوة والضعف من وجودي في تلك البيئة، وباشرت العمل.

في 2010/3/21 صحوت من نوم عميق، شعرت خلاله بألم شديد يجتاح جسدي كافة، شعرت أنني منذ عامين لم أنم مثل هذا النوم. نظرت حولي فإذا هي جدران سوداء وظلام يشقه ضوء أصفر خافت ينبعث من سقف الغرفة، لم أدرك حتى هذه اللحظة أين أنا مكذباً أفكاري، وما هذا القبر الغريب؟ وما هذا النوع من الأسّرة الذي أنام عليه، ليست غرفة الحراسة الخاصة بالشركة التي أعمل بها حارساً ليلياً، وليس سرير الخشب الذي صنعته بنفسي في غرفة الحراسة. انفتح الباب الفولاذي بعنف شعرت به، وحقد غطى ملامح ذلك الرجل باللباس العسكري الذي سألني:

- هل أنت محمد عوض؟
- نعم، أجبت.
- انهض!
- إلى أين؟ وأين أنا؟
- هذا لا يعنيك ... أجاب الرجل.

أعصب الشرطي عيني بإحكام، ووضع في يدي سلسلة ثقيلة من وراء ظهري. بدأت أقنع نفسي بأنني لست في السجن ... درج ... يمين ... يسار ... اقعد ... كلمات عرفت من خلالها كيف أسير، سمعت كلمات الترحيب محمد أهلاً وسهلاً، ثم أزاح العصبة عن عيني.

أهلاً بك ... أين أنا؟ ومن أنت؟ وماذا أفعل هنا؟ مهلاً .. مهلاً. كما قالوا لي إنك تستعجل كثيراً يا أستاذ. أنا أبو حبيب ضابط تحقيق في فندق المسكوبية، وأنت ضيفنا لمدة، أنت من يحددها. 52 يوماً من التحقيق قضيت الجزء الأكبر منها في زنازين العزل الانفرادي، لا أحدث أحداً سوى نفسي، ازدحمت الأفكار في نفسي لدرجة أنني شعرت بأن قنبلة ستنفجر في رأسي، وشريط حياتي الذي كان يمر أمام عيني في اليوم خمسين مرة، فأرى أين أصبت، وأين أخطأت في حياتي. وأحياناً كنت أضع رأسي في زاوية الزنزانة، وآخذ بالبكاء حتى أشعر أن جميع معاناتي خرجت مع تلك الدموع بلونها الأسود.

في سجن عوفر عالم آخر، ومعتقلون جدد، والكل يسأل أنا قلت كذا. كيف سيكون حكمي؟ كم سأقضي في السجن، وفي النهاية الكل صب جل اهتمامه في الحصول على علبة السجائر النادر الحصول عليها. أطفال بعمر الزهور كانوا يملأون غرفة رقم 4، تسلط عليهم مسؤول الغرفة وأسرهم أسراً فوق أسرهم، أخذت على عاتقي ولثقتي بنفسي بأنني قادر على إنقاذهم، ولأنني رأيت فيهم

جانب من مشاركة المعلم محمد عوض في مساق حول الكتابة البحثية.

طلبة المدرسة التي لم أمكث فيها أكثر من ثلاثة أشهر. عاودت الخطة نفسها، وخصصت الوقت الكافي لتنفيذها مع الأشبال في السجن، وبدأت أرقب ثمر جهدي لمدة شهرين.

– محمد عوض قامت إدارة السجن بنقلك من هنا أنت وعبد الحميد، لا نعرف إلى أين.

أوجاع طالت أطراف جسمي كافة بسبب البوسطة «الباص اللعين». دخلنا سجناً غريباً من نوعه، مصعد كهربائي ذكرني بمصعد مبنى الأونروا في رام الله. فتح لنا باب الغرفة بعد اختراق ممر السجن الطويل بمرافقة السجانين. غرفة 5 وقت القيلولة، شبان وشيوخ استيقظوا على صوت إقفال الباب، حسام، عمرو، سعيد، وأبو الأمين. كلهم بصوت واحد: الحمد لله على سلامتكم، من أين انتم قادمون؟ ... من سجن عوفر. قاموا بواجب الضيافة العربية نحونا، وسُرّوا كثيراً عندما علموا أنني مرشد في التربية والتعليم ... وبالتجربة نفسها أخذت أبذل جهدي بتعليم بعض الأسرى، والاستماع لبعضهم، لكي لا أشعر بأنني قد تغيرت بمنظوري التربوي الذي كنت أحمله متناسياً بأنني أعيش مرحلة صعبة، وفي وقت لن يطول سأغادرها.

وداع مؤلم وفراق غريب من نوعه رأيته في أعين الأسرى الذين تقاسمت معهم ألم السجن ومرارته مدة عام كامل، ومن بينهم عبد الحميد الذي خطت الدمعة على خديه ألماً لن أنساه أبداً عندما حملني أمانة بالسلام على والديه المريضين. هذا الوداع قابله من الجانب الآخر فرحة عارمة واستقبال جميل من إخوتي وأصدقائي. إنها فرحة الحرية المجروحة، وبالدموع نفسها الحارقة التي نزلت في زاوية الزنزانة، وقفت إلى قبر والدتي لأطرح عليها السلام، وأخبرها بأنني نلت الحرية بعد الأسر. وبهمة جديدة ورغبة جامحة للعمل في المجال الذي تركته قسراً، عدت إلى مدرسة شهداء قطنة، وبدأت من جديد أشرع بتنفيذ الخطة التي اعتلاها الغبار في تلك الغرفة.

حصة بعد أخرى، وجلسة تلو أخرى، واجتماع مع معلم المادة كذا بخصوص الطالب كذا. سلطة ثانية قد ظهرت في المدرسة هذا ما رآه مدير المدرسة وكأننا نتنافس في انتخابات مجلس الطلبة في الجامعة، إلى وصل به الحال، وبكلمات ليس فيها أي نوع من المهنية، أو حتى الخجل، قال: «أنا لا أريد إرشاداً في المدرسة».

هذا ما نقلته على الفور لقسم الإرشاد، ما استوجب نقلي إلى مدرسة أخرى وهي مدرسة بدو الأساسية. مدرسة استوفت كامل أوصاف المدرسة النموذجية، فوجدت نفسي أطبق ما رسمته من العمل الإرشادي لدرجة الخوض مرة أخرى مع أطفال عانوا الأسر وهم طلاب.

بدأت ملامح جديدة تظهر في حياتي، أسرة جديدة بعد الزواج ... وطفل يبكي ... وديون أثقلت كاهلي بعد إتمام مراسم الزواج، ولم أعد قادراً على سدادها من خلال الراتب المحدود أو المعدوم من خلال وظيفتي. رحت أبحث عن عمل إضافي لا يخرجني من الوسط الذي اعتدت أن أكون فيه، ويعاونني على الإيفاء بمتطلبات الحياة الخانقة. لم أجد سوى محل لبيع الأحذية الرجالية، توصلت إليه من خلال أحد الأصدقاء. ويوم بعد آخر وجدت نفسي أمام منحدر آخر في حياتي، وهو الخروج عن الإطار الطبيعي لعملي، وهو الاهتمام بمتطلبات العمل الإضافي. مسمى وظيفي آخر «بائع أحذية» يمتاز بمهارة عالية في الإقناع، وتسويق أكبر عدد ممكن من الأحذية، مستنداً إلى وسائل الإقناع الكافية التي كنت قد اكتسبها أثناء الدراسة والخبرة الحياتية. ما زاد اهتمامي بتطوير شخصيتي في العمل الآخر، الذي فيما بعد وجدت أنه أصبح على حساب المهنة الأساسية كمرشد تربوي. فصرت استغل موقعي كمرشد لجلب زملائي من المعلمين إلى محل الأحذية، بل تعدى الأمر ذلك إلى ظهوري أمام الطلبة الذين اعتادوا وعرفوني كمرشد بمظهر البائع الذي يسعى إلى بيع الحذاء فقط لا غير، وذلك من اجل التخفيف من أعباء الحياة التي أصبحت تفوق بكثير القدرة الطبيعية لموظف براتب محدود. فصرت اسمع كلمة أستاذ في المحل أكثر منها في المدرسة ... لماذا؟!

مدرسة بدو الأساسية

المعلم محمد عوض يعرض عمل مجموعته حول الدراما في التعليم.